العمران بين الأصالة والمعاصرة أزمة التأصيل والإبداع

إبراهيم بن يوسف
أستاذ بجامعة الجزائر

العمران بين الأصالة والمعاصرة
أزمة التأصيل والإبداع

ابراهيم بن يوسف
أستاذ بجامعة الجزائر

1 - مصادر الإشكالية

قبل معالجة الظواهر التي يتميز بها العمران المعاصر وقبل التطرق إلى المشاكل التي يعاني منها والإشكاليات التي يثيرها، نتساءل أولا لماذا زادت حدة المشاكل العمرانية وحجمها وسرعة نموها ومستوى تحدياتها والإهتمام بها الآن أكثر من ذي قبل ؟ هذا التساؤل يذهب بنا إلى الحديث عن أهم التحولات التي شهدتها الإنسانية في العصر الحديث والتي تجسد الثورة الصناعية المنطلق الأساسي لها.

فقد شهدت الإنسانية تحولات عميقة في كل أوضاعها من أهم مميزاتها : ازدياد في الأحجام، وحدة في سرعة النمو وشدة عقدة التراكيب والهياكل.

فعلى الصعيد الديمغرافي مثلا تم التحول مما يسمى بالنظام الطبيعي إلى النظام الحديث المتميز بإزدياد الولادات وإنخفاض الوفيات (نابع من تحسن الهياكل الصحية أساسا). على الصعيد الإقتصادي تحولت أنظمة الإنتاج من الإنتاج الحرفي اليدوي إلى الإنتاج الآلي (السريع والكثيف والموحد النمط)، وتحولت أنظمة التسيير والتنظيم من المجموعات المهنية إلى المؤسسة الحديثة التي تعتمد على التمييز والفصل بين الوظائف وعوامل الإنتاج أي رأس المال واليد العاملة والإدارة ..إلخ .

كما أرتبط الإنتاج بعامل التصميم الصناعي حيث أن الإنتاج السريع والكثيف للنمط الموحد

يحتاج إلى براعة في تصميم النمط ... كما طرأت عن هذا الإنتاج الكثيف والسريع للنمط الموحد، ضرورة بناء نموذج استهلاكي مماثل ..الخ.

عموما فجرت الطاقة الجديدة كثيرا من الأوضاع القديمة وفتحت آفاقا جديدة، وشهدت الهياكل المجالية تحولات هامة بفضل نوعية الهياكل والأدوات الإتصالية والتنقلية الجديدة فاختصرت المسافات وارتبطت الأقاليم ببعضها.

فالتحام الإنجازات الصناعية والتكنولوجية والاتصالية رفع عن الإنسان كثيرا من العوائق وفتح أمامه آفاقا كبرى. فشهدت الأقاليم حركة هائلة للبشر والأملاك وخاصة من مناطقها النائية إلى المناطق التي تتوفر على منابع الطاقة وهياكل الإنتاج، ومن أريافها إلى مدنها.

فازداد حجم سكان المدن من جراء التزايد الطبيعي، ومن جراء استقطاب المدن لسكان الأرياف (الهجرة الريفية)، وزاد الطلب على هياكلها وعقارها فدخلت طورا من التوسع يكاد لا ينقطع. وشهدت المدن بدورها تحولات في بناها وهياكلها وفي مجتمعاتها وفي وظائفها وفي حركتها على العموم، وازدادت وتيرة نموها بسرعة فائقة وتغيرت أشكالها وأوضاعها.

أصبحت المدن المأوى الأساسي للإنسان بفضل الطاقة الجديدة التي توفرها وبفضل ظروف الإنتاج ووسائل العمل التي تتمركز فيها، وبفضل كل اغراءات المدينة، منفعة ورمزا وثقافة وأسلوب حياة. فاقترنت الثورة الحضرية بالثورة الصناعية والتكنولوجية والإتصالية ضمن تحديات العصر الحديث، وتحولت المجتمعات البشرية من الأنظمة الأولية أي القائمة على العلاقات العائلية إلى تراكيب أعقد ذات أبعاد دولية، إنتقلت من الأحجام المتواضعة الى أحجام بالغة الكبر.

هذا ذكر موجز لأهم التحولات التي تمس الأوضاع البشرية في جوهرها وتجسد منعطفا معتبرا في تاريخ البشرية والعمران البشرى، بهذه التحولات دخل الإنسان العصور الحديثة. تشكل هذه التحولات مصدرا لجملة من الظواهر التي جاءت لتميز العمران الحديث والمعاصر ومنطلقا لجملة من المظاهر والمشاكل التي يعاني منها هذا العمران. فهي تثير جملة من الإشكاليات التي تنفرد بها أوضاع العمران الحديث والمعاصر نستعرضها فيما نسميه بتعابير الإشكال.

2 - تعابير الإشكال :

فإزدياد حجم المدن البشري وتزايد الطلب عليها وسرعة نموها علاوة على التحولات العامة في الأوضاع البشرية، شكل بدوره مصدرا لتحولات جوهرية تشهدها المدن المعاصرة في كل المستويات تعبر في حد ذاتها عن تحدّ الظاهرة الحضرية، وإذا كانت أهم اهتمامات المفكر

والمختص في الميدان تدور حول محاولة فهم آليات هذا التحول والنمو وفهم هذه الظواهر العمرانية الجديدة من أجل إيجاد أنسب وأفضل السبل والصيغ للسيطرة عليها، فإن هذه الظواهر تثير جملة من الإشكاليات التي ينفرد بها العمران المعاصر نستعرضها بإيجاز :

هيكلة وتنظيم الأقاليم :

وتعود هذه الإشكالية إلى وتيرة النمو المتفاوتة بين المدن والتي تشكل شبكات من المدن متباينة الأهمية والحجم والمستوى والدور. وكثيرا ما يشكل هذا التفاوت مصدرا لحركات بشرية عشوائية ومصدرا لإقصاء مناطق برمتها يعود صداها بشكل سلبي على بقية المناطق، وضمن ذلك تندرج إشكالية الأرياف والحواضر وإشكالية المدن الكبرى أو التكتلات الحضرية العظمى والإشكالية العامة للتنظيم الإقليمي والتنمية الجهوية، والتي تسعى إلى انتاج انساق أقليمية قائمة على إدماج مجموعات المدن ضمن أنظمة جهوية متكاملة ومتداخلة ..إلخ.

هيكلة المدن وتنظيمها :

وهي اشكالية يفرضها التوسع والإمتداد المستمر والحركة التي تشهدها المدن. فالتوسع والإمتداد يكون بامتصاص الحواضر لعقار ريفي وسكان ريفيين، ما يثير اشكالية خاصة بذلك تمس العلاقة بين الريف والمدينة، كما أن التوسيع والإمتداد المستمر ينتهي بتشكيل تكتلات حضرية متلاحمة تثير اشكالية الحدود وتثير اشكالية الهيكلة الوظائفية التي تتطلب توزيع النشاطات والوظائف المختلفة المتكاملة بين المراكز والأرباض ؛ كما أنها تثير اشكالية التنظيم الإداري ...إلخ.

وضمنها تندرج اشكالية المراكز واشكالية الضواحي ..إلخ، وإشكالية المدن المتوسطة واشكالية المدن الجديدة ...إلخ، وإشكالية الإتصال والنقل اشكالا وادواتا ومضامينا ...إلخ .

ترميم التراث وإدماج الأحياء التاريخية :

وهي اشكالية تمس المراكز القديمة والتارخية للمدن والتي تعاني من جهة من تدهور أوضاعها الصحية وعمارتها، بحكم استعمالها الكثيف كمراكز قديمة وتعاني من جهة أخرى من الإقصاء بحكم التوسع والإمتداد الذي تشهده المدن ونظرا للقيمة الرمزية التي تزخر بها والدلالة الثقافية والذاكرة التاريخية التي تحملها فهي تتطلب معالجة خاصة، تهدف إلى إحياء وإدماج هذه الأحياء مع

المحافظة على ذاكرتها وطابعها المعماري الأصلي..

التوسع وامتصاص الطلب المتزايد :

وهذه الإشكالية يفرضها الإقبال المتزايد على المدن وما يمليه من تزايد، في الطلب على الشغل والسكن والتجهيزات والمرافق إلخ... وهي تتطلب معالجة دقيقة لتصور أشكال التوسع وطرق وسبل الإستجابة للطلبات الجديدة والسيطرة عليها، علما بأن العقار يشكل أكثر تحد في هذا الموضوع كونه مفتاح التوسع وهو في نفس الوقت ملك نادر غير قابل لإعادة الإنتاج ...إلخ.

السكن والإسكان :

الطلب المتزايد على السكن واختلاف وتفاوت مستويات الدخل وندرة العقار تفرض معالجة مناسبة لتنظيم وتخطيط انتاج السكن لكونه حاجة ضرورية لإزدهار المجتمع، وبمراعاة لتفاوت المداخيل والطاقات واعتبارا لندرة العقار، فالسكن يثير إشكالية ذات طابع كمي يتعلق بكيفية تغطية الحاجة وانتاج الحجم المطلوب. ويثير اشكالية نوعية تمس التصاميم والتصورات، وانتاج الأشكال السكنية المناسبة للأنساق الثقافية كسبيل لتوفير الراحة النفسية للمجتمع. لذلك فإشكالية الإسكان كيفا، أي كنسق ثقافي ؛ تتميز جوهريا عن اشكالية السكن (الإيواء) كحاجة مادية وطبيعية...الخ.

البيئة :

الإقبال المتزايد على المدن وارتفاع احجامها وكثافتها يطرح إشكالية البيئة، فعلاوة علي ما تحدثه الصناعة والأشغال التي يعدها الإنسان مصدر عيشه من أضرار للبيئة، فإن المياه المستهلكة والنفايات باتت تهدد البيئة بدورها والموضوع بحاجة الى عناية ومعالجة خاصة الخ ..

التخطيط :

التوسع المستمر للمدن وتزايد أحجامها وتعقد أوضاعها يستدعي تخطيطا لتوسعها ونموها يضمن السيطرة على نموها وحركتها. لكن التخطيط بدوره يطرح عدة اشكاليات منها اشكالية المساهمة والمشاركة التي تقتضي التوفيق بين ما تمليه قواعد التخطيط والتوجيه وما تمليه ضرورة مراعاة مشاركة ومساهمة المجتمع في إنتاج تلك التصاميم والنظم التي تمس حياته وسكنه ...إلخ. كما أنها تطرح اشكالية التنسيق بين الأجهزة المشاركة وتطرح إشكالية النظم التخطيطية، الخ ...

التنظيم والتسيير الحضري :

الحركة الحضرية تستدعي تصور آليات وأنظمة وأدوات تمنح الفرصة للسلطات العمومية كي

تسيطر على الحركة والنمو الحضري، وذلك وفق أنظمة للتسيير، تتطلب تجديدا مستمرا حتى تبلغ مستوى مواجهة ظواهر في تعقد وتزايد مستمر..إلخ.

العمارة والتصميم وانتاج الإشكال :

علاوة على إشكاليات التنظيم والهيكلة، تستدعى تلك النظم تصاميم وتصورات تتطلب بدورها تجسيدا في مباني تخضع للغة إنتاج الأشكال وهو ما نسيمه عادة العمارة، وهو رصيد معتبر وأدات للإتصال عبر لغة الإشكال والألوان والمباني تلعب دورا هاما في المنظومة الجمالية وفي الرصيد الثقافي وفي التجربة الإبداعية البشرية.

الإتصال والثقافة الحضرية :

بما أن المدن الحضرية أصبحت المأوى الأساسي للإنسان ورمزا معتبرا، وهدفا لطموحه وثقافة وأسلوب حياة يطمح دوما إليه، أصبحت المدن من حيث التركيبة البشرية تؤطر مجتمعات مقعدة التراكيب، أي تتعدى علاقات القرابة والعاطفة وهذا ما يثير اشكالية تنظيم الإتصال والعلاقات بين الأفراد فيها من حيث الأداة (أدوات الاتصال والتنقل) ومعالجتها من حيث النظم (أي تصور المؤسسات والأطر المعنوية لإنتاج وتسيير العلاقات) ومن حيث المراجع والقيم التي تؤطر الذهنيات وهو ما يطلق عليه غالبا بالثقافة الحضرية إلخ ... كلها تستدعي تفكيرا وتصميما ومعالجة مناسبة إلخ ...

تلك جملة من الإشكاليات التي تثيرها المدن المعاصرة جاءت في شكل تعابير عن أهم الظواهر الإشكالية المميزة لها، لكن ما هو مرد الإشكال أساسا ؟

3 - جوهر الإشكال :

هذه الإشكاليات تطرح بدورها اشكالية أساسية وعامة وهي إشكالية المناهج والمراجع. إن أغلب هذه التحديات والمشاكل التي يعاني منها العمران تتطلب تصور حلول تمس الجوانب التنظيمية والبنائية والإنشائية والجمالية.. إلخ ؛ لكن تصور وتصميم وإنتاج الأنظمة والمنشآت والأشكال ..الخ ؛ يطرح اشكالية المناهج والسبل والطرق المناسبة لذلك. وكما يطرح اشكالية المراجع والقيم والمعارف المعتمدة أصلا ومرجعا ومنطلقا لتلك التصورات والتصاميم.

وهنا يقيم المفكرون خاصة في الغرب تمييزا بين الإنتاج الثقافي عموما والعمراني خصوصا المسمى بالإنتاج التقليدي، الخاضع للأعراف المتداولة في إطار الإنساق الثقافية التقليدية عبر

الأجيال كتراث مشترك للمجتمع المحلي، والإنتاج الثقافي والعمراني (خصوصا) الحديث الخاضع للمناهج (العلمية) والنابع من قيم ونظريات الحداثة، إن الأنظمة التقليدية كما يطلق عليها في الغرب هي الانساق الثقافية السابقة للثورة الصناعية والمتبلورة في التجمعات البشرية البسيطة الأحجام والمرتبطة بروابط النسب والنابعة قيمها من التجارب الجماعية والمتداولة شفويا عبر الأجيال كتراث مشترك يشكل المرجع الأساسي لكل الحلول والمعارف المعتمدة لدى الجماعة.

أما انتقال المجتمعات المدنية والحضرية بعد الثورة الصناعية خاصة إلى الأحجام التي تعرفها والتراكيب المعقدة التي تهيكلها يطرح اشكالية بناء ثقافة مشتركة جديدة فيما يتعلق بمناهجها وقيمها ومراجعها كرصيد ومعلم لبناء التصورات والتصاميم الضرورية لمواجهة تحديات في تعقد مستمر.

قبل معالجة أهم الطروحات والنظريات والمفاهيم المقترحة والموضوعة في الميزان، نعرض أهم الإتجاهات التي نبعت من تلك التجارب الفكرية والفلسفية ..فمن أهم الإشكاليات التي يثيرها الموضوع، العلاقة والمواقف من الزمن وهو يطرح علاقة الحاضر بالماضي وبالمستقبل.

أي ما هو موقع التراث والقيم والمعارف الموروثة تقليديا في سيرورة الإبداع وإنتاج النظم والأشكال وما هو موقع الماضي ورصيده فيما يتعلق بتصور الحلول للمشاكل العصرية ؟

ما هي العلاقة بين الثقافة التقليدية والثقافية العصرية ؟

ما هي المسافة بين التقليد والجديد؟ وبين الإبداع والنقل ؟

فتعددت الإتجاهات بين مناصري رصيد الماضي كقيم ومرجعيته أساسية لتصور النظم الجديدة (وهم المذهب النقلي)، وبين مناصري القطيعة الكلية مع الماضي ومع الرصيد المسمّى بالتقليدي والمعتمدين على افرازات العصر كقيم مرجعيته ضرورية لبناء ثقافة جديدة حديثة مناسبة لطموحات وتطورات العصور الحديثة (المذهب الحديث). تطورت هذه الإتجاهات في ظل تجارب جديدة وتحديات كبرى وأزمات فكرية وثقافية تولدت عن ذلك مواقف واتجاهات جديدة، ومردها جميعا طرح اشكالية التقليد والتجديد، والتراث والحديث، والأصالة والمعاصرة، والقطيعة والتواصل، والإبداع والتأصيل.

وقد جاء هذا ليثبت أساسا أن الإشكالية الجوهرية هي اشكالية ثقافية، اشكالية مناهج ومراجع واشكالية موقف من الزمن، وتصور له، وموقف من المكان، وتصور له، واشكالية ابداع وتأصيل ولوكانت في مظاهرها وظواهرها تثير قضايا عمرانية، مادية تنظيمية، وإنشائية وجمالية..إلخ.

4 - التقليد والتجديد في الميزان (تجرب الغرب)

طبعا تمخضت في الغرب حديثا جملة من الطروحات في الموضوع، أمام أوضاع جديدة ومعقدة أثارت اشكاليات متعددة ومعقدة، نشأت مذاهب ذات رؤى ومواقف مختلفة فيما يتعلق بتصور الحلول وتصميم البديل.

المذهب التراثي :

ينطلق من مبدأ اعتبار الإرث التاريخي والتراث نموذجا مثاليا يقتدى به فيما يتعلق بمعالجة قضايا ومشاكل المدن، نشأ وتطور أساسا في البيئة الجرمانية، ألمانيا والنمسا وما جاورها، التي تتمتع بتراث ثقافي وفكري وفلسفي معتبر يفسر رغبة الارتباط بالماضي والأخذ بمبدأ التواصل، ومن مراجع المذهب مؤلفات العمرانيين امثال كاميوستي ...

ومؤلفات الإجتماعيين امثال ڤيبر وسبنڤلر وزيمر في الإجتماع الحضري وقد نالت طروحاته صدى لدى مصممي ومنجزي المدن الحدائقية في بريطانيا.

في النقيض نشأ **المذهب الحديث** الذي ينطلق في رؤيته من إعتبار التراث(أي الإنتاج الثقافي الموروث تقليديا)، غير قادر على استيعاب ظواهر العصر الحديث والعصر بحاجة إلى رؤية جديدة تستمد أسسها ومراجعها من الأوضاع والحاجات التي يميلها العصر ومن الأدوات التي يوفرها ، فسلك نهج التمرد المطلق والعداء الأقصى للتراث والثقافة التقليدية ونادى بالقطيعة الكلية مع التاريخ والماضي، ودخل في مغامرة البحث عن أبعاد جديدة وأدوات جديدة مستقاة من صميم العصر الحديث وخاضعة لطموحاته وتلك نظرته إلى الحداثة.

فالبحث عن الموضوعية في معالجة وتحليل الأوضاع العمرانية جعل المذهب يستبدل الأبعاد الإنسانية في رؤاه بالإبعاد المادية (حيث ترتبط الموضوعية بالنسبة له بما هو نابع من المنطق الرياضي وما هو خاضع للتجربة الفيزيائية) والبحث عن التجريد جعله يستبدل الفن التشكيلي بأدوات التجريد كالهندسة مثلا .

كما جعله يراعي الأبعاد العالمية في طروحاته وتصوراته بدل الطروحات الضيقة الخاصة بالمجتمعات المحلية. وانطلق من قناعة وشعور بالنبوية حيث كان المعماري يعتبر تصوراته بمثابة حقائق مطلقة غير مرتبطة بالواقع ولابحاجة لمشاركة.

إذا كانت مبادئه في جوهرها بريئة غير أن نموها في بيئة تفرض فيها الرأسمالية نموذجها،

والفكر المادي رؤاه ومبادئه جعل انجازات هذا المذهب ترتبط بالنموذج الموحد النمط، المتكرر والنابع من وحي تكنولوجيا وصناعة البناء.

وترتبط كذلك بالأدوات التي توفرها الصناعة الحديثة كالحديد والإسمنت (أي الخرسانة). وقد أهتمت بالتجمعات السكنية الكبرى، التي تتكون من نموذج صناعي متكرر وموحد النمط تمليه النماذج الإنتاجية والأدوات الصناعية ومستوحى تصميمه من الحاجات الطبيعية والمادية للإنسان ومعتمد في رموزها وتعابيرها الدلالية على الأشكال الهندسية المجردة.

واقتصرت نظرته للإنسان على بعده الطبيعي والمادي أي حاجياته المادية : النوم والأكل والعمل والترفيه واعتمدها في تصميم فراغاته، واقتصرت نظرته العالمية على اشتراك البشر في الوظائف البيولوجية والحاجيات المادية والطبيعية.

وأعتمد في تصوراته لتصميم وانتاج الأشكال على مبدأ، أن الشكل وليد الحاجة من الإبداع وظروف الابداع. تلك الثقافة التجريدية كانت السبيل لإنتاج ذهنية جديدة ونموذج استهلاكي مناسب للمنطق الرأسمالي، مما جعل هذا المذهب ينال صدى عالميا ويأخذ طابعا دوليا تجسده المؤتمرات العالمية للعمارة الحديثة التي تمخضت عنها مبادئه فيما يسمى بميثاق أثينا 1928.

من أهم رواده لوكوربوزي الفرنسي ومعماري مدرسة البهوس الألمانية.. إلخ، لكن ربع قرن من انتشار نموذج من السكن عملاق، متكرر، متشابه، متمرد على قيم ورموز التاريخ والإنسان وكل الأزمات النفسية الإجتماعية والظواهر السلبية التي أفرزها كان كفيلا بتفجير صحوة إنسانية في الفكر العمراني والمعماري مع بداية الستينات. لقد ساهمت البنيوية والدراسات والعلوم الإنسانية في بلورة قيم وتصورات ومناهج ومقاربات جديدة جاءت لتعيد البعد الإنساني المقصى وتستبدل المخيلة بالواقع وتقتحم صميم الإنسان المعقد لتستمد منه تصوراتها وتعابيرها، واقتنعت بأن الحركة العمرانية نتاج تراكم تجارب الإنسان وابداعاته، في شكل بني (Structure) تتراكم ومنها التي تتجدد ومنها التي تتغير وهكذا تبقى بني متواصلة قادرة على استيعاب تقلبات أحوال الزمن والمكان وقادرة على تأطير مسار العمران البشري تفرض نفسها بمثابة معالم ومراجع صالحة لتأسيس تصورات ... وهكذا استعاد الانسان مكانته والتاريخ والثقافة قوتهما لكن بتصور حركي للأشياء وابداعي لا يقبل بالتقليد الجامد ولا بالتجديد المتمرد.

5 - التقليد والتجديد في الميزان (تجربة الوطن العربي)

أما في العالم العربي فالأصالة والمعاصرة كخطاب واعي غائب، أما كمواقف فقد ظهرت

أمام تفاقم الأوضاع العمرانية والثقافية على العموم وتعقدها، طروحات متعددة ومتناقضة أهمها :

أ- التيار التراثي المتقوقع :

من مميزاته الاعتقاد الكلي والمطلق في التراث كمرجع وحيد وفريد لمواجهة الأوضاع يقوم طرحه على إعتبار التراث حصنا أو قلعة يتحصن بها من مخاطر الغزو والقهر الثقافي.

ويعبر عن مقاومته للغزو الثقافي وما يتصوره مهددا لكيانه وأصالته وهويته بالإنغلاق والتقوقع على الذات (موقف القنفود) أي الجمود في أوضاع ومظاهر تراثية، فهو سجين مظاهر وأشكال وفروع من التراث ؛ وهذا ما يلمس من العودة الى والإرتباط الوثيق بالأزياء والمظاهر والأشكال والفروع في كل جوانب الثقافة من ملبس وحياة وعمران، كحبس وسجن العمارة الإسلامية في جزئيات مظهرية كالقوس والقبة ..إلخ.

وهذا التيار يتمتع بصدى واسع لدى الجماهير والشباب الناقم على الأوضاع والذي طالما عانى من الإقصاء والقهر.

ب - التيار التراثي الإندفاعي :

وهو انتقال للطرح السابق من موقف الجمود والتقوقع على الذات، أي من موقف المقاومة إلى المواجهة، يقوم بمواجهة كل ما يهدد كيانه وأصالته أي من الغزو الثقافي وبمواجهة كل ما يرمز الى القاهر محليا وعالميا، بشكل عاطفي واندفاعي دون الإعتماد على قواعد ولا تصور وتهيئة بدائل (حركة الثور)، قد ترى ذلك في المواقف من التكنولوجيا ومن الإعلام الأجنبي ومن المعارف الأجنبية، لذلك فهو يرفض التفاعل مع معطيات وتحديات العصر الحديث وينتهج سبيل مواجهتها والتصارع معها، وهو نابع مثله مثل الأول من شعور النقمة والعداء الناتج عن ذهنية النكسة والقهر والهزيمة التي تولدت عن الإقصاء والقهر الذي طالما عانت منه الشعوب العربية على كل المستويات. وهو يتمتع كذلك بصدى واسع لدى الجماهيرّ والشعوب والشباب الناقم والساخط.

ج - التيار التراثي الحضاري :

هو اتجاه ينطلق في نظرته للتراث والأصالة والثقافة والمعاصرة من تصور حركي وحضاري وجوهري، حيث تتغير تحت وطأة محك الزمن والمكان الأشكال وتسقط الفروع وتدوم الأصول والأسس وتتواصل الجواهر ويزهو الإبداع .. وهو تيار نخبوي ينحصر في النخبة (السلفية) وليس له امتداد ولا صدى في الجماهير العامة التي ترى في موقفه استسلاما وتخاذلا وذلك انطلاقا من زوايتها المؤسسة على النقمة والمقاومة والمواجهة.

د - التيار الحداثي المتمرد :

هو تيار يدعو الى التمرد المطلق على التراث والتاريخ والثقافة الموروثة ويدعو إلى الخضوع المطلق لما يمليه العصر من قيم جديدة.

فهو يتصور التراث والرصيد الثقافي الموروث رجعة وظلامية، ويتصور الخضوع المطلق لكل القيم التي يمليها العصر الحديث تحررا، وهو بذلك يستعيد نفس المفاهيم التي سادت عند التيار الحديث في الغرب في القرن 19 والتي كانت مطية للفكر المادي والمنطق الرأسمالي، حتى يجرد الإنسان من روحه وجواهره ورموزه ومن تاريخه وإنسانيته ويخضعه لنموذج ثقافي جديد مؤسس على الماديات إلخ ... وهذا الإتجاه يسلك نهج مواجهة وعداء التراث والدعوة إلى المشروع التغريبي. وهو نخبوي ضيق جدا يشكل امتدادا للمشاريع التغريبية وحصادا لبذور مزرعة الإستعمار وهو في نظر الجماهير تحديا واستفزازا.

- الإتجاه السائد :

عموما نلاحظ علاوة على المواجهة التصارعية والتناقضية بين النقيضين، سيادة المواقف المبنية على المقاومة والمواجهة والتي يجسدها الجمود والتقوقع والارتباط بالأشكال والرموز والظواهر التراثية ومواجهة مقومات العصر ورفض تحدياته حسب تصور معوق للمعاصرة ينتهي هذا الى فشل في التأصيل وعجز في الابداع والتجديد وتلك أصول الإشكالية الثقافية العامة في الوطن العربي، مصدر هذه الظاهرة راجع الى جملة من العوامل والخصائص التي تميز البيئة العربية نذكر منها :

أ - الإقصاء والقهر وانعدام حق المشاركة :

الذي عانت منه وتعاني منه الدول والشعوب العربية منذ عهود الإستعمار إلى عهد التبعية الدولية التي تشكل امتدادا له محليا ودوليا والذي تولدت عنه ذهنية النكسة والهزيمة وتكون عنه الشعور بالقهر وروح الحقد والنقمة والسخط، كل هذا جعلها من جهة تسعى إلى الإندفاع في تحطيم ورفض مقومات العصر عوض التفاعل معها فهي تفرض نفسها فرضا في شكل رموز ومظاهر مادية فقط وما يدفعها من جهة أخرى إلى الإنغلاق على الذات والتقوقع وذلك بالإستمساك برموز وأشكال تراثية جامدة تعبيرا على مقاومة ما تتصوره مهددا لكيانها وأصالتها.

ب - إقصاء الانساق الثقافية الأصلية وكسرها :

وترتبط هذه الظاهرة كذلك بما عانت منه الإنساق الثقافية الأصلية من إقصاء وكسر وتحطيم تحت وطأة الإستعمار وفي ظل الأنظمة المحلية بعدها والتي كلها عمدت إلى كسر الإنساق الأصلية واستبدالها بمشاريع غريبة توالت الواحدة تلو الأخرى بعد ثبات فشلها.

فقد كانت البيئة الثقافية العربية محل اختبار لجملة من المشاريع المتناقضة والمتتالية وقد جاءت لتحل محل الانساق الثقافية المحلية بعد اقصائها. ونتج عن هذا جمود الانساق الأصلية وتخلفها وذلك من جراء اقصائها من مسار مواكبة التقلبات الزمنية والمكانية وابقائها في متحف التراث.

ج - توالي المشاريع الغربية واختبارها :

كما تولد عن ذلك فراغ ثقافي عام، وتداخل للمراجع والقيم واختلاط في المفاهيم وتناقض بين القيم والمراجع، وكل ذلك مقترنا بالتخلف الإقتصادي والفكري وليد التبعية انتهى إلى سيادة اشكالية ثقافية أساسا تمس الجوانب الإقتصادية والثقافية والعمرانية مفادها هو فشل في التأصيل وعجز في الإبداع.

المقترحات والحلول

أ) ترميم الذاكرة وتدوينها :

إن الذاكرة الجماعية الحاملة لقيم ومعارف المجتمع والدالة على تاريخه والشاهدة على تجاربه وخبراته، مهددة بالإنهيار والزوال أمام كل الأوضاع التي سبق ذكرها، وتعتبر الذاكرة هي المعلم والشاهد الأساسي الضروري لتأصيل فكر وثقافة ما ولإحياء أمة وإقحامها في معركة الإبداع الثقافي والتنمية والتطور.

والذي يبدو الأن مستعجلا هو إدراك خطر زوال الذاكرة والعمل على ترميمها والمحافظة عليها وهذه الذاكرة نعني بها مجموع خبرات وابداع وتجارب وقيم ومعتقدات وفنون وآداب الأمة المتراكمة على مر الزمن وعبر المكان ... وتختلف نوعية تسجيلها بين ما هو مدون كتابيا كالكتب والمخطوطات ... والتي منها ما سلب ما نهب وما هو معرض للإتلاف وما هو محفوظ شفويا وهو عرضته للإندثار والزوال مع زوال حامليه وهم عموما المسنون، وما هو مسجل في لغة المباني والأشكال والمهدد بالزوال والإندثار والإنهيار، والترميم يبدأ أولا بالتدوين وحفظ الودائع خشية الضياع حتى يتم فيما

بعد ترميمها وتفعيلها.

والتدوين يتم بمختلف الوسائل والأشكال التي تسهل التسجيل والحفظ وهي الكتابية والسمعية والبصرية .. ويضاف لها فيما يخص المباني والعمارات ضبط حالاتها ومقاييسها (relevé) بالإعتماد على التقنيات المعمول بها حديثا .

ب) تصحيح المفاهيم :

يكمن جانب هام من الأزمة الثقافية التي تعاني منها الثقافة العربية حديثا في إختلاط المفاهيم وتداخل المراجع تحت وطأة كل العوامل التي سبق ذكرها. لذلك فإن هذا الجانب بحاجة إلى معالجة ابستمولوجية يتم على ضوئها تصحيح المفاهيم وضبطها.

فالتراث :

هو مجموع القيم والمعتقدات والآداب والفنون والمعارف الناتج عن تراكم وخبرات الأمة أمام تقلب الزمن والمكان، ودال على تجاربها الابداعية واجتهادها في مواجهة أوضاع متطورة ومعقدة وشاهد على تاريخها وعواطفها وأحوالها ورابط بين أجيالها وموحد لأطرافها. وعلاوة على تعدد وتنوع مواضيعها وجوانبها فهي تتميز بكونها بنى أو بنيات (structures) مترابطة ومتكاملة أجزاءها، وهي بنى أو بنيات متداخلة وفق مقاييس متدرجة تحوى كل واحدة الأخرى تتراكم على مر الزمن ومنها التي تتجدد والتي تتغير ..إلخ.

ونميز من بين هذه البنى أو البنيات التي تزول بزوال وضع زمني أو وضع مكاني وبين التي تدوم وتتواصل وتفرض قدراتها على الصلاحية وتأطير تجارب متطورة وهكذا يتم التمييز بين التي تدوم وتؤطر التجارب الجديدة وتؤسس عليها وهي الأصول والجواهر وبين التي تتغير بتغير الزمن والمكان وهي الفروع والأشكال، والتراث إذا هو ذلك الرصيد المرجعي الذي يؤطر ويؤسس الإنساق الثقافية للأمة وترجع اليه في تجاربها لمواجهة تحديات الزمن و المكان وتستمد منه أسس ابداعاتها. فهو في تجديد وتواصل مستمر وحركة دائمة إذا اصوله ما أقحم في سيرورة المسار الحضاري الكفيلة بتثبيت أصولة وتجديد وتغيير فروعه وأشكاله. و يجمد هذا التراث وينفصل عن المسار الحضاري إذا ما أقصى وأبعد عن ذلك المسار وعزل عن مكانته ووظيفته المرجعية في تأطير الحركة الحضارية للأمة وذلك ما حل بالثقافة العربية كما سبق ذكره حيث حلت مراجع غريبة محل المراجع الأصلية التي تبثت في مكانها وجمدت وتخلفت بذلك عن مواكبة تطورات العصور الجديدة الحديثة.

التأصيل :

هي عملية تفعيل وتحريك وأحياء وإنعاش لذلك الرصيد المرجعي. أي عملية تهدف إلى استنباط بنيات نابعة من جوهر الفكر الأصيل وأصوله وأحياؤها، بإقحامها في المسار الحركي كمرجع كفيل بتأطير حركة الأمة الابداعية والحضارية وذلك باعتبار الأصول وجوهر القيم الأصلية ذات القدرة على تأطير المسار الحضاري وإعتبار الأشكال والفروع منتوج التجاوب مع خصائص الزمن والمكان تزول بزوالها وزوال ظروفها.

والعملية تعتمد أولا على مناهج علمية متطورة ذات قدرة عالية على فهم ومعالجة الظواهر الإنسانية يتم على أساسها قراءة جديدة لرصيد الثقافة الأصيلة، قراءة للثقافة كمنظومة قائمة بذاتها بمنظور نسقي وبنيوي وحركي كبنى نابعة من التجارب الإنسانية تحت وطأة تحديات التقلبات الزمنية والمكانية تتراكم وتتعاقب وتتداخل، منها التي تتغير ومنها التي تتجدد، ومحك الحركة الزمنية والمكانية كفيل بفرز البنى المتواصلة ذات القدرة على تحد التقلبات الزمنية والمكانية وتأطير المسار الحضاري، وهي البنى الكفيلة باعتبارها مرجعا تؤسس على ضوئها التجارب الجديدة. ومن المناهج المعترف بفعاليتها في هذه الميادين البنيوية التي تفرعت عنها مناهج للتحليل والتصميم ذات فعالية عالية في القراءة الجوهرية والنسقية والحركية للعمران والعمارة، نضجت تجاربها في المدرسة الإيطالية مثلا التي تعاقب عليها منذ الستينات مثلا كنيجيا والدوروسي وموراتوي ... وفي فرنسا يمثلها فيليب بانري وكاستيكس وفي النرويج تجسدها اعمال كريستيان نوربرغ تشولز ..إلخ، وهي تتعامل مع الثقافة والتاريخ بشكل نسقي وحركي تهدف إلى التواصل وترفض القطيعة كما ترفض استهلاك الأشكال واعتبار الفروع .... وتعتمد في مفاهيمها على بعض الأدوات الناضجة في فكر الفيلسوف الألماني مارتين هيدقر ... فالمنهج إذا رافض للقطيعة المفروضة ورافض لاستهلاك الأشكال وتقوقع الفكر وجموده وسجنه في الفروع، ورافض لمناهج لتكييف للأشياء، كما يرى البعض الأخر أن الأصالة تكييف أوضاع لأوضاع ورافض لمناهج الإنتقاء من التراث كما يرى البعض الاخر أن التأصيل هي عملية انتقاء رموز وصور من التراث والعملية لا تغدو أن تكون اصطناعية شكلية وفلكلورية .....

المعاصرة :

أساسها ادراك أن الزمن والمكان متغيران أساسيان تحت وطأة حركتهما تتجدد الأوضاع وتتعقد. وتواجه الانسان تحديات كفيلة بدفعه للإجتهاد في مواجهتها، وذلك بمراجعة مراجعه

الموجودة ، والاجتهاد بإبداع وانتاج تجارب جديدة، تتراكم في الزمن والمكان وتشكل رصيد الحضارة الإنسانية، فالمعاصرة اذ هي تفاعل للإنسان مع الزمن والمكان، تفاعل انساقه الثقافية وليس تفاعلا ماديا أو جسديا للإنسان مع الزمن والمكان، ذلك التفاعل جدير بتنمية الرصيد الحضاري وتنمية قدرات الانسان الابداعية في اطار مواجهته لتقلبات الزمن والمكان، الحافز الأساسي لإجتهاده وتجاربه الإباعية المحركة لسيرورة الإنتاج الحضاري.

واستيعاب ظروف الزمن والمكان بحاجة إلى المناهج العلمية الكفيلة بإدراك التقلبات الزمنية وسيروتها وحركتها وآلياتها وقوانينها وقواعدها، حتى يسهل تأطيرها ومواجهتها، ومن تلك المناهج ما توفره الإحصائيات والمناهج التخطيطية والدراسات المستقبلية ..إلخ، فالمعاصرة اذا تجاوب مع الزمن والمكان في حركتهما وتفاعل ثقافي حضاري وليست خضوعا أو استسلاما لوضع ولا قطيعة مع حضارة ولا إعدام للذات ... كما يرى البعض.

الإبداع :

هو الإجتهاد في انتاج تجارب جديدة أمام تعقد الأحوال النابعة من تقلبات الزمن والمكان. فهو ذلك الفائض المعرفي الناتج عن مجهود واجتهاد فكري ومادي تحت وطأة التدافع. والابداع بقدر ما هو دال على قدرة الإنسان الإجتهادية ، فهو نابع أساسا من مرجعية وليس من عدم، فهو ليس انتاجا من عدم وبالاطلاق بقدر ما هو تجربة جديدة مؤطرة بمرجعية وتشكل امتدادا لها في الزمن الجديد.

والإبداع هو الفرصة التي تحرر العقل البشري وتنمي قدرات الإنسان الاجتهادية دون احداث قطيعة واضطراب في نسقه ... وقد يكون مثلا بالاجتهاد في تجسيد أفكار وأصول ومبادئ وقيم حسب ظروف الزمن والمكان، وقد يكون بالاجتهاد في ايجاد أشكال منتهية وصيغ وحلول لأوضاع زمنية ومكانية، انطلاقا من مبادئ وقواعد مستمدة من المراجع والخبرات الأصيلة ..إلخ ... فالابداع اذا هو ذلك المجهود الفكري والمادي الإنساني الكفيل بإنتاج تجربة وخبرة جديدة مضاف للرصيد الحضاري.

الإشراك والمساهمة :

ويعني اشراك المجتمع في انتاج التجارب والتصاميم وبلورة المشاريع التي تؤطر حياته وأوضاعه، اقتناعا من أن الإقصاء يشكل عاملا أساسيا في التخلف والتناقضات الثقافية

والصراعات.

والإضطربات ... والإشراك والمساهمة كفيلان بتقريب التصاميم والمشاريع من طموحات المجتمع وتصوراته وهو المعني الأول منها.

وهي كفيلة كذلك بتنمية قدرات المجتمع الثقافية والابداعية وكفيلة بتنمية روح المسؤولية وشعور الانتماء. والإشراك والمساهمة يكون أساسا باعتماد الانساق الثقافية الأصيلة، مرجعا أساسيا لبلورة المشاريع الثقافية (بالمفهوم العام) التي تؤطر تنظيم المجتمع وعمرانه وحياته ومرجعا أساسيا للتشريعات وذلك بإعتماد الأنساق في تأطير التجارب الجديدة والمشاريع الجديدة.

والاشراك والمساهمة يكون كذلك بترقية وتطوير وتصور أطر ومؤسسات تشارك عبرها الفئات الإجتماعية، وتعبر من خلالها عن طموحاتها وتصوراتها وتمثلها وتمثل مصالحها في اطار بلورة المشاريع . ومن ذلك كل التجارب التي ترمي الى هيكلة المشاركة والمساهمة في اطار مؤسسات يشارك السكان من خلالها في بلورة وتصميم المخططات العمرانية ومخططات الإسكان... إلخ والورشات الشعبية التي تحاول تقريب التقنيين في البلديات المكلفين بالتهيئة العمرانية والسكان، وترمي إلى تدريب السكان على فهم وادراك التعامل مع تقنيات العمران ... إلخ وكلها تجارب نابعة من طموح لاشراك الانسان وتنمية قدراته الثقافية وروح المسؤولية، هي في طور النضج في جملة من الدول.

قائمة المراجع العربية

1- **ابن يوسف ابراهيم** : اشكالية العمران، الجزائر، مطبعة ابوداود، 1992

2- **اركون محمد** : الفكر العربي، ترجمة د.عادل العوا، الجزائر، بيروت، د.م.ج ودار عويدات، 1982 (الطبعة الثانية).

3- **اركون محمد** : الفكر الاسلامي، ترجمة وتعليق هاشم صالح، الجزائر، لافوميك .م وك، 1993.

4- **بن نبي مالك** : شروط النهضة، الجزائر (1947)، طبعة جديدة تحت اشراف ندوة مالك بن نبي، سلسلة مشكلات الحضارة، دار الفكر، الجزائر / دمشق، 1992

5- **بن نبي مالك** : مشكلة الثقافة، القاهرة (1959)، طبعة جديدة تحت اشراف ندوة مالك بن نبي، سلسلة مشكلات الحضارة، دار الفكر، الجزائر/ دمشق، 1992

6- **بن نبي مالك** : تأملات في المجتمع العربي، القاهرة (1961)، طبعة جديدة تحت اشراف ندوة مالك بن نبي، سلسلة مشكلات الحضارة، دار الفكر، الجزائر /دمشق، 1992.

7- **بن نبي مالك** : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، القاهرة (1972)، طبعة جديدة تحت اشراف ندوة مالك بن نبي، سلسلة مشكلات الحضارة، دار الفكر، الجزائر /دمشق، 1992

8- **شرابي هشام** : دراسات في المجتمع العربي، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 1981 (الطبعة الرابعة).

9 -**الجابري** : الاصالة والمعاصرة، مركز الدراسات والبحوث العربية، بيروت.

Bibliographie principale

1-Bachelard, Gaston : La poétique de l'espace, Paris, Puf, 1972.
2-Barthes, R : Sémiologie et urbanisme, in AA, No 153, déc 1970 Janv 1971 P7.
3-Castellan, Yvonne : La famille du groupe à la cellule, Paris, Dunod, 1980.
4 -Eliade, Mirlea : Le sacré et Le profane, Paris, Gallimard, 1965.
5-Guillaume, Paul : La forme, Paris, Flammarion, 1937.
6 -Hall, Edward. T : La dimension cachée, Paris, Le Seuil, 1966.
7-Heidegger, Martin : Essais et conférences, traduction, française, Paris, Gallimard, 1958.
8-Le Febvre, H : Le droit à la ville, Paris, Anthropos, 1968.
9-Ledrut, Raymond : Les images de la ville, Paris, ed Anthropos.
10-Luchinchen, Arnulf : Sturcturalisme en architecture et en urbanisme, Stuttgart, K. Krämer, 1981.
11-Lynch, Kevine : L'image de la cité, Paris, Dunod, 1969.
12 -Lynch, Kevine : Voir et planifier, Paris, Dunod, 1977. Moles, Abraham. A Rohmer, Elisabeth : Psychologie de l'espace, Tournai, Casterman, 1972.
13-Norberg-Schulz, Christian : Système logique de l'architecture, Bruxelles, Mardaga, 1974.
14-Norberg-Schulz, Christian : Existence, space and architecture, London,1971.
15-Norberg-Schulz, Christian : La signification dans l'architecture occidentale, Bruxelles, Margada, 1977.
16-Norberg-Schulz, Christian : Genius Loci, traduction française, Bruxelles, Margada, 1981.
17-Panerai, PH : Eléments d'analyse urbaine, Bruxelles, AAM, 1986.
18-Piaget, J : La construction du réel chez l'enfant, Neuchâtel, 1937.
19-Piaget, J. : La représentation du monde chez l'enfant, Paris, 1926.
20-Rapoport, Amos : Pour une anthropologie de la maison, Paris, Dunod, 1972.
21 -Rossi, Aldo : L'architecture de la ville, l'équerre, Paris, 1981.
22-Roux, Jean-Michel : Territoires sans lieux, Paris, Dunod, 1980.
23 -Von Miess, Pierre : De la forme au lieu, Lausanne, édition P.P.R; 1986.